رحيل عاشق من فلسطين

المدى الثقافي

توفي امس الاول عن ٦٧ عاما الشاعر الفلسطيني الكبير " محمود درويش "، بعد ان خضع صباح الاربعاء الماضية لعملية قلب مفتوح لعلاج أحد الشرايين الذي تعرض لتضخم خطير، أجريت له في مستشفى "ميموريال هيرمان" الامريكي في هيوستن بولاية تكساس. ووضع إثر العملية على جهاز تنفس صناعي. وقضى الشاعر العربي الكبير الساعات الـ٤٨ الاخيرة من صراعه في حال موت سريري، اثر مضاعفات مفاجئة تلت الجراحة.

وكان الشاعر الفلسطيني ، قد خضع لعمليتين جراحيتين عامي ١٩٨٤ و١٩٩٨، وكانت العملية الاخيرة وراء ولادة قصيدته المطولة "جدارية" التي يقول فيها "هزمتك ياموت، الفنون الجميلة جميعها هزمتك، ياموت الاغاني في بلاد الرافدين، مسلة المصري، مقبرة الفراعنة النقوش على حجارة معبد هزمتك وانت انتصرت".

وقالت مصادر فلسطينية موثوق بها ان الرئاسة الفلسطينية بدأت ترتيبات اعادة جثمان درويش. واضافت ان بين هذه الترتيبات نقل الجثمان في طائرة اماراتية الى عمان، ومن هناك سيصار الى نقله الى رام الله في الضفة الغربية. كما تبذل مساع فلسطينية لدى اسرائيل للسماح بدفنه في قريته البروة في اراضي الـ٤٨، والا فسيوارى الثرى في رام الله.

و نعى الرئيس الفلسطيني محمود عباس الشاعر الكبير درويش وأعلن الحداد العام بالمناطق الفلسطينية ثلاثة أيام. وأضاءت رام الله الشموع حزنا. وقال عباس "إن غياب شاعرنا الكبير محمود درويش عاشق فلسطين رائد المشروع الثقافي الفلسطيني الحديث والقائد الوطني اللامع والمعطاء، سيترك فراغا كبيرا في حياتنا الثقافية والسياسية والوطنية، لن يملأه سوى أولئك المبدعين الذين تتلمذوا في مدرسته وتمثلوا أشعاره وكتاباته وأفكاره وسيواصلون حمل رسالته الإبداعية لهذا الجيل وللأجيال القادمة".

وأعلن رئيس السلطة "الحداد العام في الوطن لمدة ثلاثة أيام تكريما لروح فقيد الشعب والأمة والإنسانية وتعبيرا عن حب هذا الشعب لابنه البار والمميز محمود درويش".

ودرويش هو أحد أهم الشعراء الذين كانوا صوت القضية الفلسطينية في العالم، وأحد أهم الشعراء الذين ساهموا في بناء الشعر العربي الحديث. ولد في قرية البروة من أراضي ٤٨ والتي دمرتها إسرائيل عام ١٩٤٨ لتبنى في مكانها قرية زراعية يهودية باسم حي هود. وبعد النكبة لجأت عائلته لجنوب لبنان ثم عاد متخفيا بعد سنة مع عائلته إلى فلسطين، ليبقى فترة قصيرة في قرية دير الأسد في الجليل قبل أن تستقر العائلة في قرية الجديدة المجاورة لمسقط رأسه. وتنقل درويش بين قرى الجليل لدراسته الإعدادية والثانوية، ثم استقر في مدينة حيفا حيث التحق بالحزب الشيوعي الذي كان يضم يهودا وعربا.

عمل درويش في صحيفة الاتحاد ومجلة الجديد التابعتين للحزب الشيوعي في مدينة حيفا. وفي هذه الفترة بدأ ينظم الشعر، وعرف في فلسطين بأنه "شاعر المقاومة". وأثار غضب إسرائيل التي أصبحت شرطتها تحاصر أي قرية تقيم أمسية شعرية له. حتى أن قصيدته "عابرون في كلام عابر" أثارت نقاشا حادا داخل الكنيست. وقد تعرض درويش لملاحقات أمنية إسرائيلية وسجن ثلاث مرات (١٩٦١ و١٩٦٥ و١٩٦٧) ثم فرضت عليه إقامة جبرية بسبب تصريحاته ونشاطاته السياسية.

وكان الأول بين مجموعة من الشعراء الذين كتبوا من داخل إسرائيل عندما كانت رئيسة الحكومة في تلك الفترة غولدا مائير تقول علنا "ليس هناك فلسطينيون". وعام ١٩٧٢، غادر حيفا لمصر حيث التحق بمنظمة التحرير الفلسطينية ومنها انتقل لبيروت. وبعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان وخروج المقاتلين الفلسطينيين عام ١٩٨٢، توجه للقاهرة ومنها لتونس ثم باريس.

وعام ١٩٩٣ استقال درويش من عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير احتجاجا على اتفاق أوسلو، معتبرا أنه "ليس عادلا لأنه لا يوفر الحد الأدنى من إحساس الفلسطيني بامتلاك هويته".

ثم عاد منتصف التسعينيات الى غزة ثم اختار الإقامة في رام الله بالضفة. وانتقد الاقتتال بين الفلسطينيين في آخر قصائده "أنت منذ الآن غيرك" التي نشرت في حزيران ,٢٠٠٧وتحسر فيها على حال الشعب الفلسطيني الذي "أصبح بدولتين" "هل كان علينا أن نسقط من علو شاهق، ونرى دمنا على أيدينا... لندرك أننا لسنا ملائكة.. كما كنا نظن؟ كم كذبنا حين قلنا: نحن استثناء!"

وحصل الشاعر الراحل على عدة جوائز منها جائزة لوتس عام ١٩٦٩، جائزة البحر المتوسط عام ١٩٨٠، دروع الثورة الفلسطينية عام ١٩٨١، لوحة أوروبا للشعر عام ١٩٨١، جائزة ابن سينا في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٢، جائزة لينين في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٣، جائزة الأمير كلاوس (هولندا) عام ٢٠٠٤، جائزة العويس الثقافية مناصفة مع الشاعر السوري أدونيس عام ,٢٠٠٤

مؤلفاته

عاشق من فلسطين، (١٩٦٦)
آخر الليل، (١٩٦٧)
حبيبتي تنهض من نومها، (١٩٧٠)
محاولة رقم ٧، (١٩٧٣)
تلك صورتها وهذا انتحار العاشق، (١٩٧٥)
أعراس، (١٩٧٧)
مديح الظل العالي، (١٩٨٣)
حصار لمدائح البحر، (١٩٨٤)
هي أغنية، هي أغنية، (١٩٨٦)
ورد أقل، (١٩٨٦)
أرى ما أريد، (١٩٩٠)
أحد عشر كوكباً، (١٩٩٢)
سرير الغريبة، (١٩٩٩)
يوميات الحزن العادي، (١٩٧٣)
وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام، (١٩٧٤)
في وصف حالتنا، (١٩٨٧)
عابرون في كلام عابر، (١٩٩١)
حالة حصار (٢٠٠٢)
جداريته (١٩٩٩)
لماذا تركت الحصان وحيداً (١٩٩٥)
احبك او لا احبك (١٩٧٢)
ذاكرة للنسيان (١٩٨٢)
الكناية على ضوء البندقية
العصافير تموت في الجليل
اوراق الزيتون
شيء عن الوطن
عصافير بلا اجنحة
جندي يحلم بالزنابق البيضاء

حين ينفجر الضوء.. حين يموت الشاعر

كان من المقدر لمحمود درويش أن يموت منذ أن عرف كشاعر للمقاومة الفلسطينية،مطلع الستينيات من القرن الماضي، لكنه ظل يخادع موته أكثر من نصف قرن من الزمن،ولكي يحسن التعامل مع موته المؤجل راح يتنقل من همه الفلسطيني (الضيق)إلى الهم العربي الأكبر، ولما اتسعت دائرة الهموم الإنسانية أبتكر لغة جديدة، تتناسب مع حجم المأساة التي يعيشها الإنسان بشكله الأعم، وبذلك صار من الخطيئة وصفه بالشاعر العربي حتى وإن ألصقنا به لفظة الكبير.

ومنذ أن قرأنا له (عصافير بلا أجنحة)-كتابه الأول- وحتى اليوم الأخير الذي سبق موته تقاسم درويش مع ثلاثة شعراء عرب (ادونيس وسعدي يوسف ونزار قباني) خريطة الشعر العربي الحديث، لكنه ظل الألصق بالقضية الفلسطينية، والمعبر المائي الذي مر على جسره كل شعراء فلسطين ولبنان وسوريا تحديدا فضلا عن أثره الكبير في أكثر من جيل من الشعراء العرب من الذين وقعوا تحت إغواء الشعور القومي في مطالع حياتهم الشعرية أولا وتحت إغواء لغته العذبة الجديدة وابتكاراته ومجازاته التي لم يتمكن الكثير من شعراء العربية من التملص منها ثانيا.

درويش،وعلى مدى ثلاثين السنة الماضية،وبعد أن تمكن من نفي صفة (المقاومة) عنه داخل دائرة النقد،أستطاع أن ينفرد بذائقة المتلقي العربي،الذي ظل يبحث عن شاعر يجمع له انتصاراته وهزائمه في قصيدة واحدة، وهكذا كان درويش، عبر تنقل مخطط له، قد واءم بين قضيتين كبيرتين (الفلسطينية- الإنسانية) وشيئا فشيئا (تضاءلت) القضية الأولى لتصبح (ثانوية) في عالم كل ما فيه مأساوي وفجائعي،وهو تحول طبيعي في حياة الشاعر الكبير،بل نقول الإنسان الكبير، إذ ما معنى أن يكون لك وطن تنتقل فيه حيث تشاء،لكنه مغلق عليك،أنى ذهبت فيه،كل ما فيه قاتل ودموي،ويبدو انه أدرك ذلك عبر مأساة شرق أوسطية كبيرة.

كان وجود الشاعر في بلاد العرب، وعلى مدى التأريخ العربي كله غربة حقيقة،ولو تفحصنا ذلك في المدونات لوجدنا أن الشاعر ظل غريب الوجه واليد واللسان حتى وإن لم يرشعب بوان،ودرويش الذي تمكن من العيش داخل وطنه المحتل بقدرة غرائبية فائقة، لم يكن آخر الشعراء الغرباء،إذ ما معنى وجود أكثر الشعراء العرب خارج أوطانهم؟ ولماذا تتسع المنافي أكثر لهم فيما تضيق على غيرهم من شعراء الإنسانية؟

وليس مصادفة أن تنتهي حياة شاعر كبير مثل محمود درويش في أحد مستشفيات الولايات المتحدة فقد سبقه آخرون هناك أو في أوروبا لكي نعلم أن الشرق العربي هذا سيظل طاردا أبدا لحافظي بهجته،ومدوني وجوده، إذ لم يكن حاضنة يوما لأحد من هؤلاء، وتفاخر مؤسساته وأنظمته السياسية بأنها تخلصت منهم جميعا،وتركتهم نهبا لموظفي الأمم المتحدة والهيئات الدولية واقفين في الطوابير يبحثون عن أوطان يستطيعون فيها أن يكتبوا عن العصافير التي تنقر حبات الضوء،عن الغيمات التي تهطل على رؤوس الأمراء والوزراء لكنها تشيح بوجهها عن كل ما هو عربي وقد صارت البلاد منفى للجميع.

ربما تسهم السماء بقدراتها الخارقة بتأجيل موت الكثير من الشعراء العرب داخل وخارج بلادنا اليوم،لكنها تعجلت بإيقاف قلب الفلسطيني محمود،وسواء أتمكن الأطباء في مستشفى ميموريال هيرمان الأمريكي في هيوستن من تضييق سعة شريان قلبه الأبهر أم لم يتمكنوا، ومها كانت حججنا نحن الذين لم نمت بعد،علينا أن نتقبل موت محمود المفاجئ هذا،لكي يتسنى للآخرين تقبل موتنا القادم،لقد انفجر الضوء، لقد مات الشاعر!

طالب عبد العزيز
شاعر

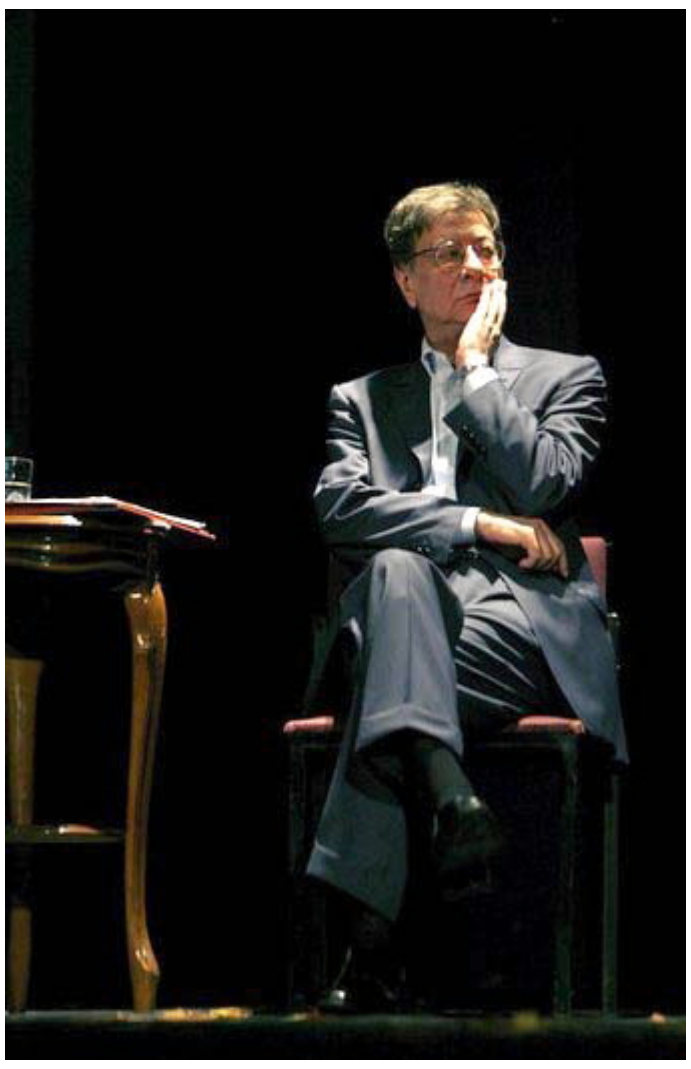

لن اقول وداعاً يا درويش

يذكرني محمود درويش بزمن مختلف.. زمن نكبات.. وحروب زمن مقاومة مسلحة.. زمن وجود اراض واكتساحها.. زمن ان نرمي "اسرائيل" ومستوطنيها بالبحر.. قبل ان نغرق نحن بأوهامنا.. قبل ان نلقى جميعاً الى المتاهة.. محمود درويش.. مع آخرين.. سميح القاسم مثلاً يبقى حياة معلنة.. وموتاً معلناً في الآن ذاته..

الكلمة تعلن عن نفسها دائماً..
والوهم يبقى يلفنا دائماً نحن السادرين في ميتاتنا..
لن اقول وداعاً يا درويش.
فكلنا مودعون..
بل اقول مرحباً ايها الصحو..
ان كان ثمة صحو تبقى..
مرحباً..
ووداعاً اذن..

خليل الاسدي
شاعر

قالوا في محمود درويش

هذا الشاعر التراجيدي المنبت استطاع أن يكون شاغل الناس وشاغل الشعراء والنقاد والقراء على اختلاف أمزجتهم. لا يحب محمود درويش كلمة "جمهور" أو "جماهير"، يفضل كلمة قارئ أو قراء. هذا ما بات واضحاً الآن تمام الوضوح. يحس الشاعر انه يكتب لنفسه مثلما يكتب لقارئه. إنها المعادلة الصعبة التي حققها محمود درويش، صانعاً من الشعر ذاكرته وذاكرة قرائه، ذاكرته وذاكرة الأرض المجروحة. ولئن كان ولا يزال شاعر القضية فهو نجح في تحمل عبء هذه الصفة أو الكناية من غير أن يتخلى عنها لحظة. بل هو عمّق هذه الصفة حتى أضحت مغروسة في تراب الماضي- الحاضر. انه الشاعر أولاً وأخيراً وربما الشاعر فقط، سارق النار ومضرمها، الشاعر السري المتجذر في أرض الحلم والمنفتح على شمس الرؤيا.

عبدو وازن

لم يكتب درويش عن الشعر إلا قليلاً ولم يول للتنظير الشعري إلا قليلاً. لقد صنع شعره من دون أن يحير قراءه بمثال نظري ومن دون أن يلتبس فيه الشاعر بالمفكر في الشعر. كفاه الالتباس الذي لا ينفك بين الشاعر والفلسطيني... الشاعر أولا بالتأكيد عند درويش، وما فعله هو أن يبقى الشعر أولا وتصدر عنه كل البطاقات الأخرى. لقد جعل فلسطينيته عنواناً آخر للشعر وحولها إلى ملحمته وميتافيزياه وإشكاله الأنطولوجي. لا يخسر الشعر بذلك، لكننا مع درويش.

عباس بيضون

ثلاث صفات تميز محمود درويش عن غيره: أعار صوته الشعري إلى شعبه، أو استعار شعبه صوته الشعري، إلى أن دخل مع القضية الفلسطينية إلى قران لا انفكاك منه. خلق لقصيدته جمهوراً عربياً حاشداً، كما لو كان الشعر العربي الراهن قد اختصر إلى قصيدته أو يكاد. ظفر باعتراف عالمي أمده بمكانة له لا تحتاج إلى برهان. كان في هذه الصفات الثلاث شاعر القضية التي التزم بها، والشاعر الذي صير القضية إلى مجاز شعري، يتجاوز المكان ويمحو الحدود الجغرافية ويتحاور مع قارئ متعدد اللغات. وإذا كان لكل حديث مناسبة فما المناسبة التي تستدعي هذا الكلام؟

فيصل دراج

الشعر ماء اللغة، به تغتسل من ذاكرتها وتصنع ذاكرتها في آن واحد...
كأن الكلمات التي يكتبها الشعراء تأتي من مكان سري في أعماقنا ، من تجربة تبحث عن لغتها ، ومن كلمات تتجدد في ماء الشعر.
تجربة محمود درويش هي ابنة هذا الماء به غسلت لغتها وجددتها ، أقامت من المأساة الفلسطينية جداريه شعرية كبرى تختزن في أعماقها هذا الغوص في ماء الشعر وماء الحياة.
نستطيع أن نقرأ التجربة الدرويشية في مستويات متعددة ننسبها إلى أرضها ، ونكتشف ملحمة مقاومة الشعب الفلسطيني للاندثار والموت فتصبح القصائد شكلاً لتاريخ المأساة.

الياس خوري

الهيرالد تريبون:

فقدت فلسطين جزءاً من روحها

ترجمة ابتسام عبد اللّه

توفي في هيوستن الولايات المتحدة الامريكية ايقونة الثقافة الفلسطينية محمود درويش والذي حكت قصائده البليغة شعبه بتجربة المنفى والاحتلال والمقاومة.

الشاعر الشهير، الذي ترجمت اعماله الى اكثر من ٢٠ لغة وفاز بعدة جوائز عالمية توفي على أثر عملية "القلب المفتوح" في مستشفى هيوستن كما اكد ذلك نبيل ابو ردينة المتحدث باسم الرئيس الفلسطيني محمود عباس.

ولد محمود درويش في عائلة مسلمة كبيرة في فلسطين وقد وصف كفاح شعبه للاستقلال في الوقت ذاته انتقد الاحتلال الاسرائيلي لبلاده وايضاً القيادة الفلسطينية كان شعره وقصائده صوت الاحلام الفلسطينية للدولة المنشودة والاستقلال والهوية الوطنية.

احس محمود درويش بنبض فلسطين في قصائده الجميلة وكان مرآة للمجتمع الفلسطيني كما قال علي كليبو عالم الاجتماع الفلسطيني والمحاضر في مادة الدراسات الثقافية في جامعة القدس.

كانت اعوام الستينيات هي المرحلة التي عرفت الشهرة طريقها الى درويش بعد نشر مجموعته الشعرية الاولى "طيور بلا اجنحة" ومن بينها قصيدته "بطاقة هوية" والتي تحدثت بصيغة المتكلم عن رجل عربي يعطي رقم بطاقة هويته- امر مألوف بين الفلسطينيين الذين يتعاملون مع السلطات الاسرائيلية والحكومات العربية- ويقسم بالعودة الى الوطن.

معظم قصائد درويش قد تحولت الى اغنيات وفي مقدمتها "ريتا" طيور بلا اجنحة" و"أحن الى قهوة امي وخبز امي" واصبحت اناشيد لاكثر من جيلين من العرب.

وقد نشر درويش ٢١ مجموعة شعرية على الاقل آخرها في عام ٢٠٠٨ بعنوان "انطباعة طبعة الفراشات"

وصف كليبو شعر درويش بكونه "السهل الممتنع" وذلك لامكانية الشعر في تكثيف الحكايا الفلسطينية الى لغة بسيطة مثيرة للمشاعر مبتعداً عن الوزن الشعري العربي التقليدي الثقيل.

كان محمود درويش هو الذي كتب اعلان الاستقلال الفلسطيني عام ١٩٨٨، والذي تلي من قبل الرئيس والقائد الفلسطيني الراحل ياسر عرفات عندما اعلن قيام الدولة كان الاعلان رمزيا ولم يستند على اسس قوية.

كان تأثير محمود درويش واضحاً بين ابناءالشعب الفلسطيني مقدماً نفسه صوتاً لهم.

بدأت قصائد محمود درويش اولاً تتحدث عن المقاومة واصبح شاعرها وتقول حنان الشعراوي "انه يجسد افضل ما في فلسطين.. انه حتى بعد تحوله الى رمز (وايقونة) لم يفقد قط حسه الانساني لقد فقدنا جزءاً من روحنا الروح الفلسطينية.

ولد درويش في قرية فلسطينية بالقرب من حيفا، والتي دمرت عام ١٩٤٨ في الحرب الفلسطينية- العربية الاسرائيلية وقد انضم الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي بعد دراسته الاعدادية وبدأ بكتابة القصائد للصحف اليسارية

ويقول سعيد عزام مخول، المشرع القانوني ومن قدامى الحزب الشيوعي الاسرائيلي اننا عندما نفكر في درويش نرى انه قلبنا ولساننا.

وكان درويش قرأ في العام الماضي قصيدة هاجم فيها القتال الدائر بين حماس وفتح واصفاً اياه "محاولة جماعية للانتماء في الشوارع"

غادر الشاعر الفلسطيني "اسرائيل" في اوائل اعوام السبعينيات من القرن الماضي للدراسة في الاتحاد السوفيتي (القديم) وسافر من هناك الى مصر ولبنان انضم الى منظمة التحرير الفلسطينية واستقال منها بعدئذ في عام١٩٩٣ احتجاجاً على الاتفاقية الامنية التي عقدت بين القائد الفلسطيني ياسر عرفات مع اسرائيل وانتقل درويش بعد ذلك الى الضفة الغربية والى مدينة رام الله تحديداً في عام ,١٩٩٦

واعمال محمود درويش الشعرية تلقى اعجاباً شديداً لدى العرب، ولكنها تثير مشاعر اخرى في اسرائيل.

ففي عام ٢٠٠٠، اقترح وزير التعليم في (اسرائيل) ان تتضمن مناهج المدارس الثانوية شيئاً من قصائد محمود درويش ولكن ايهود باراك رفض ذلك قائلاً ان (اسرائيل) لا تحتاج الى افكاره.

وفي عام ١٩٨٨، قرأت قصيدة درويش "عابر في كلمات زائلة" من قبل اسحق شامير، في البرلمان الاسرائيلي كنموذج لعدم رغبة الفلسطينين للعيش مع اليهود اذ ان القصيدة تقترح على اليهود مغادرة البلاد بينما اعلن عادل اسطه المتخصص في شعر درويش ان القصيدة اسيء تفسيرها وترجمتها ثم اضاف "لقد خلق هوية فلسطينية وطنية ولم يفعل مثل ذلك أي شاعر آخر.

اما في حياته الشخصية فقد تزوج درويش وطلق مرتين.

وكان درويش قد غادر الى هيوستن قبل عشرة اعوام لاجراء عملية وطلب عدم القيام بانعاشه اثر موت ظاهري كما قالت صديقته منذ اعوام الشاعرة سهام داود مضيفة انه كان يعاني منذ اعوام مشاكل في القلب وقد اجريت له عمليتان من قبل.

وكان اكرم حنانيا، رئيس تحرير جريدة الايام وصديق درويش المقرب الى جواره في هيوستن.